بحث طريف في « التوارج » الملثمين

مقام المرأة السامي في اجتماعهم وأدبهم

بلادهم وطبقاتهم — ابجديتهم وادبهم — حياتهم ومعيشتهم

لعلَّ امة « التوارج » التي تقطن جنوب الجزائر الاقصى هي من اعجب الامم ، وادناها الى الدهشة والاستغراب . فان لها عادات واخلاقاً ما احسبها تكون لامة اخرى سواها. وهي امة بربرية في اصلها وفصلها ، ولكنها تخالف كل من يقطن بلاد المغرب من شعوب البربر جميعاً . وهي مسلمة تدين بدين الاسلام ، ولكنها تخالف المسلمين حتى في بعض اصول الدين .

وبينما نرى المفكرين في سائر بلاد الاسلام يتناولون قضية المرأة المسلمة ويعالجون امر « حجابها وسفورها » اذا بنا نرى الامر قد عكس عند « التوارج » تماماً ، فالمرأة عندهم سافرة طليقة ، والرجل محجب متلثم ! وسنرى انهُ قد يسري في تلثمه وحجابه الى ان يتجاوز حدود ما تسميه الادب واللياقة . ولئن كان التوارج شعبة من الجزائر ، فانهم لا يشعرون بانهم جزائريون ، او لا يعترفون بذلك . وفي الحق انهُ لا تكاد تربطهم بالجزائر غير الخارطة الجغرافية. فلثامهم الشلحية بعيدة (في حالتها الحاضرة) عن لهجات اللغة البربرية التي تتكلمها القبائل البربرية بالجزائر ووجوههم مستطيلة شاحبة صفراء تضرب الى الزرقة ، ولا تشابه وجوه قبيلة بربرية اخرى . وقاماتهم مستقيمة رشيقة ، وليست كقامات بقية البربر . . . .

ولقد افاض الناس في تاريخ « التوارج » بين مخطيء ومصيب. ومنذ سنوات كانت بعثة علمية اميركانية تبحث وتنقب في تلك البلاد . فعثرت هنالك لبعض ملوكهم على آثار قيمة من حيث العلم والتاريخ . غير اني ما رأيت احداً وصف الحالة الحاضرة «للتوارج» وصفاً مستوعباً دقيقاً . فأحببت ان اقصر هذا الحديث على وصف تلك الحالة الحاضرة واجتهدت ان يكون هذا الوصف صادقاً يصف الامر الواقع هنالك كما هو

سنرى في هذا الحديث

كانت عندي معلومات ضئيلة عن التوارج لا تسمن ولا تغني من جوع ، فاردت ان

اتمّم اخبارهم ، وازيد معرفة بهم قرأيت الكتّاب الفرنسيين يكتبون عن ماضي تلك البلاد ، ولا يكتبون عن حاضرها الا قليلاً منهم ، وصفها وصفاً سطحيًّا ، وقاصراً على جهة « عجّار » فقط وهي الجهة التي شملها نفوذ فرنسا . وقد يكتفي الكاتب الفرنسي من البحث بسؤال رجل واحد او اثنين من « التوارج » فيجيبه بغير الواقع : لانهم يبغضون الفرنجة الاجانب ويرون فيهم مستعمرين قساة محاربين . لا يثقون بهم . ويذكر لك التارجي بانهُ سأله فلان وفلان من الفرنجة عن كذا وكذا . . . . . ويفخر عليك بانهُ ساعده الحظ فوثقوا بهِ ، فأوقعهم كلهم في الخطاء ، ولبّس عليهم كلهم في الجواب تلبيساً ! . ثم هذا الكاتب الفرنسي لا يلبث هنالك الاّ امداً قليلاً لا يتمكن فيهِ من درس حالتهم ولا من فهمها . لذلك لم اعتمد في الاكثر الا على ما حدّثني بهِ هنا في هذا الباب حضرة صديقي الفاضل السيد يحيى ابو ثمن ، وهو احد شبان الجزائر المغرمين بالبحث والاستطلاع . فقد قضى هنالك بين التوارج خمس سنوات كاملة ، عرف فيها احوالهم . وكان قبل ذلك قد حذق لغتهم ، فاختلط بهم ، وتعود عاداتهم ، وتلثم بلثامهم ! وتزوج بفتاة منهم ، فاصبح موضع ثقتهم ، يحبهم ويحبونهُ . وهو ينوي ان يجمع ما يعرفهُ عنهم ، ثم ينشرهُ ، بلغة الفرنسيس . واذا كان احدسواه قد تحدث عن الملثمين بالظن والتخمين ، فهو يروي لنا هذا الحديث عن خبرة وعيان « ولا ينبئك مثل خبير »

التوارج وبلادهم

طرابلس ، وهي بلاد كثيرة النجاد والهضبات . وتنقسم من حيث التسمية الى بلاد « عجار » او عجّار وبلاد « أزجَر » والاولى هي التوارج الغربية ، والثانية هي التوارج الشرقية وكانت بين البلادين في القديم حروب ، وما زال ذلك الى اليوم

واسم « التوارج » مشتقٌ من كلمة « تارجا » ، وهو اسم لصحراء فزان او غات ، وعاصمتها مَرزُك ، وهي ما تزال حرة الى الآن ، ولكن تتحفّز ايطاليا لامتلاكها . وهي تقع في شرق « آزجر » غير ان التوارج لا يتسمّون بهذا الاسم ، بل يسمّون انفسهم : « ايمُهاقَن » ومعناها « الغزاة » او « المغيرون » . ولعلّ في هذا الاسم الذي هو علم عليهم ما يجعلنا نفهم نفسيتهم ، وانهم طبعوا على الغارة والنهب وهم في الاصل شعبة من البربر الذين قدموا الجزائر من ليبيا منذ عصر قديم ، كما يقول المؤرخون الذين ايّدوا رأيهم هذا بأدلة علمية مُقنِعة ليس هذا محلّها . وليسوا من الزّمان ، لانهُ لا دليل من العلم يؤيد هذا الرأي

حياتهم ومعيشتهم

وحياتهم على وجه العموم حياة منسجمة سعيدة ، لانهُ لاهمَّ فيها ولاشقاء ، او لانهم لا يشعرون بمافيها من الهم والشقاء . وهي حياة ساذجة بسيطة مبنية في الجملة على الاخلاص والايثار . ويتفانى الواحد منهم ، وينكر ذاته في الامتثال لأوضاع جماعته (قبيلته) وهو من هذه الجهة لا يعيش لنفسه ، بل يعيش لقبيلته ، ويخلص لها . وهو من هذه الجهة ايضاً متقيّد غير حرّ ، ولكنهُ يجد في نفسه من الغبطة والسعادة على قدر مايكون له من هذا التقيُّد

ومعيشتهم ضنكة عسيرة ، فيها شظف وخشونة ، وليس فيها نعومة ولا لين . فالذرة (البشنة) هي اطيب ما يأكلون ، او هي كلُّ ما يأكلون . ويعلّلونها في موقد النار ملاًّ ، ويأكلونها رخوة لا تكاد تتماسك . واشهى أكلة اليهم هي سويق يتخذونه من ذرة وتمر وإقط (كليلة) ، ويلتُّونهُ بالماء ، او باللبن الحليب . واذا هيّأ الحظ للسافرين منهم هذه الاكلة ، فانهم يأكلونها ركوباً على المهاري ، وهم يتفنّنون . ويعدّون ذلك نعمة يحمدون الله عليها حمداً كثيراً . ولا يأكلون القمح اقتصاداً لما يلزمه من نفقة التوابل والافاويه

ومع هذا الشظف في العيش ، فقد تصيبهم مسغبة شديدة ، وينزل بهم قحط اليم ، فيعوزهم القوت ، ولا يجدون ، ذرة ولا قمحاً ولا شعيراً ، ولا ما يأكل . فيضطرون الى القطف ، وبعض النباتات الاخرى ، وجذور بعض الاشجار المهملة . ويحرقون النوى (نوى التمر) ويدقونه ، ويأكلونه مخلوطاً بالفسيل والبصل ويومئذ تسوء حالتهم ، وتعمهم البأساء والضرّاء ويقعون فيما يفتت الاكباد رحمة لهم ورثاء ، ويذيب النفوس حسرة عليهم وحزناً . وقد يتجملون للخصاصة ويحتسبون الصبر عليها . وهم يتعوّدون في الرخاء قلة الأكل ، ويديمون مطال الجوع . وفي ذلك فخرهم وتنافسهم

وموارد رزقهم زراعة القمح والشعير والذرة وبعض التواكه والخضر . ويزرعونها (ما عدا التمر) في احواض صغيرة يسقونها بماء الآبار : الرجل يدلّي دلوه ، وبقية والمرأة تصرف عنهُ الماء من حوض الى حوض . وفي بعض بلادهم عيون جارية ، غير انها لاتكفي لان تبسط النعمة والرخاء ، بين اولئك القوم على مر الايام وهم يشقون الصيد ويحترفونهُ . ولحم الهاوي يبيعونهُ رطباً ويابساً بالتمر او بالذرة يوم حصادها وذلك مورد من موارد رزقهم

والفصل الذي يفيض عليهم نعمة ورخاء ، هو فصل الخريف حينما يزهر النخل ، ويثمر البسر وتبرك الذرة ويحين حصادها . ففي هذا الفصل يشبعون ، وفيهِ تروج التجارة فترد عليهم القوافل من السودان الغربي ، ومن توات ، وهكار ، تحمل اليهم الكتان والاقمشة والشاهي والسكر . وفي هذا الفصل ايضاً ينشط بينهم التزاوج ، وتتكاثر الافراح

طبقاتهم

وهم على ثلاث طبقات بعضها فوق بعض : « آمنوكال » وهم الملوك و« إيهكّارَنْ » وهم النبلاء الاشراف .. و « إعناد » وهم السوقة وعامة الناس

فاما « آمنوكال » فهي كلة يستوي فيها المفرد وغير المفرد . ومعناها صاحب البلاد او صاحب الطبل لأن شارة الملك عندهم ان يتخذ لنفسه طبلاً كبيراً يحمل عند الحاجة على جملَيْن اتين عليها عبدان اسودان يضربانه للتغير او لأمر جامع . والمُلْك عندهم متوارث . وولي العهد لا بدَّ ان يكون ابن اخت الملك ، ولا يكون ابن الملك ، ولو كان ابن الاخت هذا من قبيلة اخرى غير قبيلة الملك . ووراثة الملك هذه (او رئاسة العشيرة) تابعة لمسألة اخرى في الميراث ، وهي ان ابن الاخت في عرفهم هو الوارث الشرعي الذي يرث خاله فيما يتركه من العقار . ولا يرث الابن اباه الا فيما كان اثاثاً او حيواناً

ويحكم بلادهم اليوم حاكمان اثنان حاكم على عشائر « هكار » وهو من قبيلة كبرى تدعى « كِل غلا » وعاصمة ملكه تدعى « تمْغَصَتْ » وهو الآن تحت الحماية الفرنسية او هي شبه الحماية . والحاكم الآخر على عشائر « آزجر » وهو من قبيلة « ايوراغن » وآوراغ : الذهب ، وعاصمته « غات » . وبلاده مازالت حرّة . وكانت بين أزجر وبين هكار في القديم حروب ومنافرات ، وما زالت الى اليوم . واهل هكار اكثر عدداً وعُدداً . واهل ازجر أصبر على الحرب القتال

وكانت « آمنوكالية » ثالثة في الجهة الغربية من ازجر ، اسقطها فرنسا والحقتها بأمنوكالية هكار . لان آمنوكالها لم يرضَ بالحماية الفرنسية ، وهو آخر بني « إيتان » الذين حكموا هذه الآمنوكالية منذ ثلاثة قرون . وربما شمل نفوذهم بلاد التوارج كلها . وهم الذين بنوا بلدة « اجانت » عاصمة الامنوكالية . وهي بجبالها الجميلة ، ووديانها الاخضر البهيج ، وبمناظرها الطبيعية الرائعة فيها ، تستهوي النفوس ، وتسبي العيون فتتورواه وبالجملة فهي احسن بلدة في التوارج كلها . لعلك تعجب اذا قلت لك ان النخيل الذي في « جانت » هذه كله وقف لا يباع ولا يشترى ، يستغله اهل البلدة ، ولا يبيعون لاصول النخل ولا ثمره . ومن احتاج الى غلّة نخلة اخذها مجاناً . وان ارض تلك البساتين التي فيها النخل هي اليوم في ملكية آمنوكال هكار . ولعامله على « جانت » النظر في امرها ، فهو يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء من اهل البلدة ولكن ليس لهذا العامل ان يستغلها هو لنفسه او لآمنوكاله . وهكذا كانت الحال على عهد بني إيتان ، والظنون انهم هم الذين حبّسوا نخيل جانت وآثروا على إخلائهم اهالي البلدين لئلا يخذلوهم ، وينفضّوا من حولهم ، او لانهم يخافون عليهم

(ان هم باعوا نخيلهم)ان يذهبوا ضحايا المجاعات . واثنان هؤلاء لايزال ذكرهم يجري على السنة الناس هنالك بكل احترام وتقديس . وأمنوكالية جاءت هذه ، وان طردت فرنسا مليكها، والحقتها بهكار ، فان اهلها ما زالوا يعتبرون انفسهم من آزجر من حيث الحلف والعصبية، ويخضعون لامنوكال غاية خضوعاً روحيًّا . ويعدونه امنوكالهم الشرعي بعد « ايمنان »

واما طبقة « ايهكّارن » وهم البلاء فهي تلي الملوك في الارستقراطية . فهؤلاء البلاء يستعبدون « ايمغادن » وهي طبقة السوقة وعامة الناس ، ولا يرقبون فيهم الاًّ ولا ذمة . فكل نبيل يعيش عالة على اسرة او اكثر من السوقة (ايمغادن) تقوم له كرهاً ولا كرامة بكل ما يحتاج اليه من مال او متاع . ولا يتورَّع النبيل ان ينصب ناقة لاحد السوقة ، ويجبر آخر ان يسافر له عليها سفراً تجاريًّا . وهؤلاء البلاء لايحترفون ولا يشتغلون بالزراعة ولا يملكون ضيعة ولا عقاراً ، فقد تركوا كل ذلك للسوقة تكد فيه وتعمل ، حتى اذا اثمر اخذوا منه ما يحتاجون اليه غنماً بارداً . وقد ضجّ الناس من هذه المظالم ، ولكن لا مفرّ لهم منها اليوم ، ففرنسا التي استولت على هكار كلها ، وعلى آمنوكالية جانت من آزجر لا تستطيع لسوء الحظ ان ترفع عن الناس هذا الظلم المبين . وذلك لانها تحتفظ بما كان على ما كان ، ولانها ان استعملت الشدة والعنف مع التوارج في شيء ما ، فانهم يفرّون من بين يديها جميعاً ، ويتركون لها البلاد خاوية على عروشها ؟

والبلاء كلهم يسكنون البادية ، والحضر عندهم كلهم سوقة . وسوقة البادية فيهم اذل من الحضر . وقليل من هؤلاء البلاء من يملك بعض بهيمة الانعام . لان الملك والاكتساب والاحتراف كلها في نظر هؤلاء البلاء عار عظيم ، الا حرفة واحدة يحترفونها ، ولا يرون فيها اذى غضاضة . وهي حرفة « الغارة والنهب » ويتوارثونها ابناً عن اب . فاذا كان الاب مغواراً نهاباً كان على ابنه ان يشابه اباه . ويجيء مغواراً نهاباً . ولا يتبع اباه في صفة من الصفات المكتسبة الا في هذه . فان هذا الابن يتبع امه لا اباه في الضعة والشرف فمن كانت امه نبيلة شريفة جاء شريفاً نبيلاً ، ولو كان ابوه عبداً اسود (سودانيًّا) وضيعاً. ومن كانت امه وضيعة جاء هو وضيعاً ولو كان ابوه نبيلاً او آمنوكالا . ولا يعتبرون في حطة النسب او رفعته الا جهة الام فقط . فهم ينتسبون لامهاتهم لا لآبائهم ويفخرون بهؤلاء الامهات ، كما يفخر الشاعر العربي ويضع بينهم قول الفرزدق اذ يفخر بآبائه :

اولئك آبائي ، فجئني بمثلهم اذا جمعتنا ياجرير المجامع

ويقول بعض العلماء الفرنسيين : ان انتساب التوارج هذا لامهاتهم هو اثر من آثار اباحية كانت في العلاقات الجنسية بينهم لا يعرف فيها الاب على وجه التعيين . ثم لم يذكر

دليلاً علمياً واحداً على هذه الدعوى : واحسبه لا يستطيع أن يأتي على ذلك بدليل الا ان يضرب لذلك مثلاً بالحيوانات غير الانسان التي تنسب نتاجها الى امهاتها دون آبائها . ولكنا لا ننتظر في المستقبل ان تنسب هذه النتاج الى آبائها لا الى امهاتها . ولا رأينا في تاريخ التوارج ما اخرجهم من الابنية المزعومة بل رأيناهم في ماضيهم احسن وارقى منهم في حاضرهم . والحق ان هذا نتيجة لازمة لتحكم المرأة عندهم بالرجل ، واستئثارها بالامر والنهي دونه على خلاف ما عليه امم الارض جميعاً . ولا تنتسب القبيلة من قبائلهم الى اب من آبائها ولكن الى الوطن الذي تقطنه جبلاً كان او وادياً . «فكيل زواواتن» معناها : وادي زواواتن ، و«كيل امهرو» كذلك ، وهكذا سائر اسماء القبائل والشعوب فيهم

أبجديتهم وأدبهم

ولهم ابجدية خصوصية يكتبون بها رسائلهم في لغتهم الشلحية ، ويسمونها « تافناق » اي الفينيقية . وهي نفس الحروف الابجدية الفينيقية الا ما اعتراها طبعاً من التغير والزيادة والنقصان . وهم لا يعلمون هذا ، بل يزعمون ان امرأة منهم شاعرة هي التي اخترعت هذه الابجدية في الزمن القديم . ولا يفهمون من كلمة « تفناق » الا انها علم لابجديتهم

ويكتبون ابجديتهم هذه من اليمين الى الشمال كما تكتب العربية ، ومن الشمال الى اليمين او منهما معاً كما يجيء بحيث تكون الرسالة سطراً واحداً يذهب في الصحيفة يميناً ويرجع شمالاً . ويكتبونها ايضاً كذلك من فوق الى تحت وبالعكس ومنهما معاً . والنساء هن اللاتي يقرأن ويكتبن بهذه الحروف ، ولا تكاد تجد بينهن امرأة الا وهي تحسن « تافناق » ، كما انك لا تجد منهن من تتكلم العربية او تقرأها . ولا تهتم العربية اصلاً ؛ وانما تهتم لغتهن البربرية ليس غير . وقليل من الرجال من يحسن « تافناق » . والذي يتكلم العربية او يقرأها إنما هم الرجال الذين يقرأون القرآن ويتفقهون في الدين

وليس عندهم كتاب بلغتهم وابجديتهم يقرأونه ويدرسونه ولكن لهم بعض الرسائل يتناقلونها كمثل اعلى للفصاحة والبيان يحتذون اسلوبها ، وينسجون على منوالها وهي رسائل خصوصية بافلام نساوكن كتبنها الى معاشيقهن ، يشتكين اليهم ما يجدنه بين جوانحهن من الوجد بهم ، وما في هذا الوجد من لوعة وعذاب . واسلوب هذه الرسائل اسلوب فطري بسيط يبدأ فيه باسم الكاتبة ثم يذكر اسم المكتوب اليه . ومن بلاغتهم انهم يكررون الكلمة التي يراد تأكيد معناها . وكل كلمة تكررت كانت ابلغ في التأكيد . ولمثل هذا التأكيد قد يكررون الكلمة عشر مرات او اكثر . ولهم اعتبارات اخرى يميزون بها بين درجات الكلام

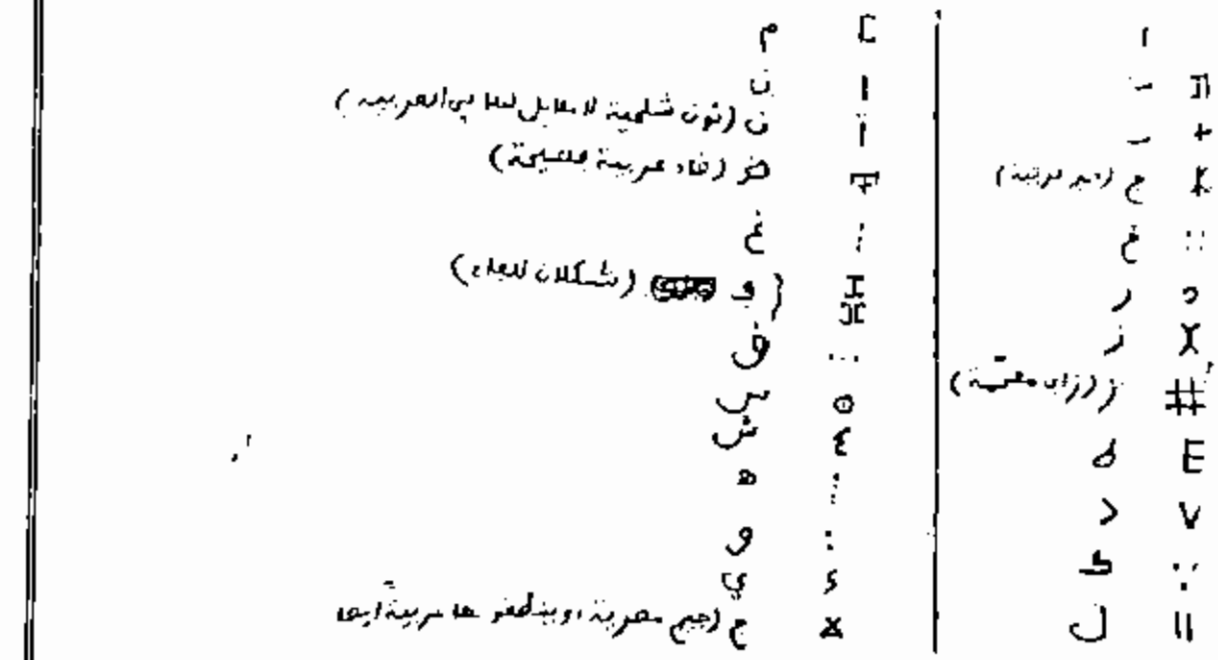

ابجدية « التوارج » وما يقابلها من الحروف العربية بخط صاحب المقال

امام الصفحة ٤١٧

وشعرهم اكثرهُ من نثرهم وهو مقطوعات في بضعة ابيات . وقصائد مطولات وخرافات في روايات منظومة . ولعل احسن ما في هذا الشعر هو انهُ لا يزال ساذجاً على فطرته ، ولا صنعة فيه فهو صورة واضحة جلية لنفوسهم ، ولكل ما يخالج نفوسهم من نزعات ونزغات ومن عواطف واحساسات . واهمُّ اغراض الشعر عندهم : الحماسة والمدح والغزل والتشبيب. ومن العجيب ان هذا الغزل وهذا التشبيب هما غزل النساء وتشبيبهن بالرجال وأن هذا المدح هو مدح النساء للنساء . ولعلّي احدثك بغربة اذا قلت لك : انهُ لا يوجد بين رجالهم رجل شاعر . وانما النساء هنَّ الشواعر او الشاعرات ، على خلاف ما هو معروف بين جميع الشعوب . والشاعرة عندهم لها منزلة سامية ، ومقام عظيم . وحيثما حللت ، لقيت من الحفاوة والبر بعض ما اشبه ان يكون « حفلات تكريم ! » ولكل شاعرة راوية من النساء او راويتان اثنتان او اكثر ، على قدر منزلتها من الشعر . وكل قبيلة تفتخر بشاعرتها او بشواعرها وقد يجتمع جماعة من الشواعر ، وهنَّ من قبائل مختلفة ، فيتناشدن الاشعار ويتفاخرن بالفصاحة والبلاغة . ومن اسباب الفخر ان تكثر الشاعرة في شعرها من الكلمات النادرة الغريبة ، تريد بذلك ان تفوق زميلاتها وتبرز عليهن . وهذا وجه من وجوه البلاغة ودليل من دلائل الاعجاز عندهم . ولعلَّ هذا هو كل ما في شعرهم من الصنعة والتعمل

ويزعمون ان اول من قال الشعر بلغتهم هي المرأة الشاعرة التي هي ايضاً اول من كتب بابجدية «تفناق» واول ما قالت شعراً اليك تعريبهُ : فاطمة بنت اغنيس، لا يمس احد خصرها الا بصداق مبلغهُ ستة عشر قرشاً . وهم يكنون بمس الخصر عن الزواج ، لان اول ما يمسهُ الرجل في عرفهم من المرأة هو خصرها . وهذا المبلغ من الصداق لا يمكن ان يقدمهُ لها زوج ، الا اذا يمكن احدنا ان يقدم لزوجته في صداقها مملكة من الممالك !

واللغة التارجية بربرية محضة ، وادبها بربري في اسلوبه وخياله . بخلاف لغة بقية العشائر البربرية في الجزائر ، فقد دخلها من العربية شيء كثير لا يحصى حتى صارت عربية مشوهة وتسمعها انت الذي لا تحسن البربرية ، فتفهمها تماماً لانها كلمات عربية وكلمات بربرية في تركيب عربي عامي . وسوف لا يبقى لها اثر البتة على قدر ما يزيد امتزاج البربر بالعرب. واما التارجية فهي مستقلة عن العربية كلَّ الاستقلال . ولا سيما من حيث التراكيب وحروف المعاني، فاسماء الاشخاص ما زال اكثرها بربريًّا ، واسماء العدد كلها بربرية من الواحد الى الالف . وبالجملة فلا ينطقون بكلمة عربية، الا بما لا بدَّ منه لكل مسلم من كلمة الشهادة ونحوها، وينطقونها في صيغة بربرية فيقولون « سيدنا محمَّد ! » بخاء مفخمة هم يسمون «سيدنا محمَّد» وهكذا

(لها تابع) تلمسان محمد السعيد الزاهري